مسرحيات انتصارات أكتوبر في الوجدان الشعبي

أ.د. سيد علي إسماعيل

كلية الآداب – جامعة حلوان

الاستلام	٢٠١٧/١٠/٢٣	المراجعة	٢٠١٧/١١/١١	النشر	٢٠١٧/١٢/٣١

ملخص:

لعب المسرح في مصر دورًا كبيرًا في انتصارات أكتوبر ١٩٧٣، حيث تعامل المسرحيون مع الحدث تعاملاً جماهيريًا شعبيًا مس وجدانهم. فأغلب العروض المسرحية التي واكبت الحدث، كانت نابعة من وجدان المبدع، لأنها كانت استجابة فورية انفعالية، قابلها المسؤولون بإيجابية؛ حيث فتحوا جميع المسارح مجانًا للجماهير المصرية، ليستمتع الشعب بالحدث ويتفاعل مع الانتصار. وكان أكثر الكُتّاب المسرحيين استجابة لانتصارات أكتوبر الشاعر والكاتب المسرحي عبد العزيز عبد الظاهر، وأيضًا الكاتب المسرحي السيد حافظ.

الكلمات المفتاحية:

المسرح، انتصارات أكتوبر، الوجدان الشعبي

October victories' Plays in popular conscience

Prof. Sayed Ali Esmaiel

Faculty of Art, Helwan University

Egypt

Received	23/10/2017	Revised	11/11/2017	Published	31/12/2017

Abdtract:

The theatre played a major role in October 1973 victories, whereas the playwrights interacted with the victories action in a heart touching manner, especially from the view of the national audience. For most of the theatrical scenes that tackled this event, were emerging from the conscious of the author, because it was considered as an immediate passionate response, received enthusiastically by the officials in a way that they opened all the theatres free of charge for the Egyptian audience, in order for the Egyptians to enjoy the event and interact with the victory. The poet and playwright Abdul-Aziz Abdul-Zaher and the playwright Alsayed Hafez were the most playwrights who were interacted with October's victory.

Key Words:

Theatre, October's victory, Popular conscience

بعد أربعة أيام من بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبعد أن تأكد الانتصار، قام يوسف السباعي - وزير الثقافة حينذاك - بوضع خطة لمجاراة سير المعركة مسرحيًا – من أجل التعبئة الوطنية – تمثلت في حصر المسرحيات – التي قُدمت قبل المعركة – شريطة أن تكون مضمونة التأثير في الوجدان الشعبي، مثل: مسرحيات (أقوى من الزمن)، و(صلاح الدين الأيوبي)، و(مدد مدد .. شدي حيلك يا بلد). والعرض الأخير، قال عنه جلال العشري: "ألف مخرجه عبد الغفار عودة بين أشعار زكي عمر الشعبية وألحان محمد نوح المصرية؛ محاولاً أن يقدم عرضًا فيه من الفورية بمقدار ما فيه من الصدق والحوار، وفيه من التلقائية ما يجعل جمهور الصالة يشارك ممثلي المسرح في ترديد أناشيد المعركة" [١]. وهذا الوصف يؤكد مدى تأثير هذا العرض على وجدان الجمهور!!

ومن الواضح أن اللعب على وتر الوجدان الشعبي كان الشغل الشاغل للوزير؛ فلم يكتف بالعروض المسرحية، بل أضاف إليها عاملين مؤثرين في الوجدان الشعبي: الأول قيام بعض الشعراء الشبان بالتعبير عن حماسهم بإلقاء أشعارهم على خشبة المسرح قبل كل عرض مسرحي. والعامل الآخر، تمثل في قيام الفرقة القومية للفنون الشعبية بتقديم لوحات وتابلوهات راقصة تحكي قصص البطولات العظيمة التي حققها الشعب المصري من خلال لوحة (بور سعيد)، كما قدمت فرقة رضا عروضًا استعراضية جديدة تعبر عن كفاح الشعب المصري في المعارك التي خاضها من أجل الحرية والحياة من خلال لوحتي (قطار الثورة) و(السد العالي)، ومما يؤكد اهتمام الوزير بالوجدان الشعبي، جعل دخول جميع هذه الفعاليات مجانًا، وأعلن عن ذلك في الصحف القومية[٢].

وزارة الثقافة

هيئة المسرح تفتح أبواب مسارحها للجمهور بدون مقابل

مشاركة من هيئة السينما والمسرح والموسيقى « قطاع المسرح والموسيقى » في التعبئة الوطنية لجماهير شعبنا الواعي .. قد تقرر فتح أبواب مسارح الهيئة للجمهور بدون مقابل .. وسوف تكون برامج الفرق المسرحية التابعة للهيئة على النحو التالي

• المسرح القومي ويقدم مسرحية أقوى من الزمن
تأليف : يوسف السباعي - إخراج : نبيل الألفي .. على مسرح جورج أبيض (الأزبكية سابقاً) اعتباراً من يوم الخميس ١١ اكتوبر ١٩٧٣ ومن الاثنين ١٥ اكتوبر ١٩٧٣ ستقدم مسرحية صلاح الدين مع قراءات شعرية

• المسرح الحديث .. يبدأ برنامجه الغنائي الموسيقي التمثيلي « مدد مدد .. شدي حيلك يا بلد » مع قراءات شعرية على مسرح يوسف وهبي « الجمهورية سابقاً » ابتداء من يوم السبت ١٣ اكتوبر ٧٣

• مسرح الجيب يبدأ يوم الخميس ١١ اكتوبر ١٩٧٣ بعرض مسرحية الغول مع قراءات شعرية على مسرح زكي طليمات « ٢٦ يوليو سابقاً »

• الفرقة القومية للفنون الشعبية .. تقدم لوحات وتابلوهات راقصة تحكي قصص البطولات العظيمة التي حققها شعبنا الباسل على مسرح يوسف وهبي « الجمهورية سابقاً » وذلك حتى يوم الجمعة ١٢ اكتوبر ٧٣

• فرقة رضا تقدم عروضا استعراضية جديدة تعبر عن كفاح الشعب المصري في المعارك التي خاضها من أجل الحرية والحياة .. مع قراءات شعرية تسبق العرض وذلك اعتباراً من يوم الخميس ١١ اكتوبر ١٩٧٣ على مسرح أم كلثوم « البالون سابقاً بالجزيرة »

ترفع الستار الساعة ٨ مساءً في جميع المسارح .. والدعوة عامة لكل أفراد الشعب

ومن الملاحظ كذلك أن إعلانات العروض المسرحية، كانت تشتمل على عبارات حماسية مؤثرة في الوجدان الشعبي! فعلى سبيل المثال نجد في إعلان مسرحية (مدد مدد شدي حيلك يا بلد)، يأتي عنوانها مصحوبًا بعبارة:

"سهرة مع الكلمة واللحن والأغنية من أجل المعركة". كما نجد في إعلان مسرحية (صلاح الدين)، يأتي عنوانها مصحوبًا بعبارة "المسرحية التي تعبر عن الوحدة الوطنية والتصميم العربي على النصر"[٣].

وهكذا ازدحمت مسارح القاهرة بجماهير الشعب المصري احتفالاً بانتصارات أكتوبر، ومشاهدة العروض المسرحية الحماسية مجانًا، فقررت وزارة الثقافة استثمار حماس الشعب النابع من وجدانه الشعبي؛ فأعادت نشر إعلاناتها السابقة مع تغيير في المقدمة، قالت فيها تحت عنوان (تحية لأبطالنا وشكرًا لجمهورنا): "عندما فتحت هيئة المسرح أبواب مسارحها للجمهور دعمًا ومشاركة لتيار الوعي الوطني .. وإسهامًا منها في معركة التحرير، بالكلمة الصادقة المعبرة عن آمال شعبنا في نصرة جيشنا الباسل .. وأمام النجاح العظيم الذي حققته هذه التجربة .. فقد رأت الهيئة أن تنظم مسار هذا الإقبال الشديد من جانب الجمهور ليستهدف في النهاية صالح المجهود الحربي. لذلك قررت الهيئة أن يكون الدخول إلى مسارحها اعتبارًا من اليوم بسعر موحد قدره ١٠ قروش على أن تخصص الحصيلة لصالح المجهود الحربي"[٤].

وزارة الثقافة – الهيئة العامة للمسرح والموسيقى

تحية لأبطالنا... وشكرًا للجمهورنا

عندما تفتح الهيئة العامة للمسرح أبواب مسارحها للجمهور دعمًا ومشاركة لتيار الوعي الوطني.. واسهامًا متواضعًا في معركة التحرير، بالكلمة الصادقة المعبرة عن آمال شعبنا في نصرة جيشنا الباسل...

وأمام النجاح العظيم الذي حققته لهذه التجربة.. فقد رأت الهيئة أن تنظم مسارحها الأقبال الشديد من جانب الجمهور ليستوفي في النهاية صالح الجمهور الحر. ولهذا قررت الهيئة أن يكون الدخول إلى مسارحها اعتبارًا من اليوم بسعر موحد قدره ١٠ قروش على أن تخصص الحصيلة لصالح المجهود الحربي

والهيئة ترحب باستقبالك اليوم في المسارح التالية:

- المسرح القومي يقدم مسرحية (صلاح الدين) تأليف: محمود شعبان إخراج: كمال حسين على مسرح جورج أبيض «الأزبكية سابقًا»
- مسرح الطليعة يقدم مسرحية (الغول) مساهمة: فؤاد حداد إخراج: أحمد زكي على مسرح زكي طليمات (٢٦ يوليو سابقًا)
- المسرح الحديث يقدم البرنامج الغنائي التمثيلي (مدد مدد شدي حيلك يا بلدي) إعداد وإخراج: عبد الغفار عوده موسيقى: محمد نوح على مسرح يوسف وهبي (الجمهورية سابقًا)
- فرقة رضا تقدم عروضها الوطنية الجديدة على مسرح أم كلثوم (بالبالون سابقًا)
- السيرك القومي برنامج روسي / ألماني رمضي في جولة السيرك القومي بالعجوزة

يسبق العروض ويتخللها قراءات شعرية لكبار الشعراء ونجوم المسرح

تحجز المقاعد كالمعتاد من شبابيك التذاكر – يبدأ العرض الساعة ٨ مساء

وفي اليوم التالي، نشرت جريدة (الأهرام) – بوصفها جريدة قومية – خطابين حماسيين، كان الغرض من نشرهما التأثير في وجدان القرّاء بصورة غير مباشرة! فقد قرر الوزير "يوسف السباعي" الاجتماع مع الأدباء من أجل تفعيل دور الأدب في المعركة، ولم يحضر الاجتماع الكاتب المسرحي توفيق الحكيم، الذي أرسل خطابًا إلى الوزير – وهو الخطاب الأول المنشور في الجريدة - قال فيه: "الأستاذ يوسف السباعي .. كان بودي حضور اجتماع الأدباء الليلة، ولكنك تعلم أن صحتي لا تسمح لي بالخروج ليلاً، ولكني تواق إلى المشاركة بعمل ما في معركة الشرف أكثر من مجرد كلماتي على الورق .. لقد اجتاز وطننا الكلام إلى الفعل. ألا أستطيع أن أعبر عن ذلك بالعمل الفعلي في منجزات يدوية تسهم ولو بالقليل في دفعة الإنتاج العام الذي يدعم المعركة .. ابحثوا لي عن عمل يناسب سني وصحتي في مصنع إمدادات أو معلبات .. أريد أن يكون مكاني اليوم إلى جوار عامل يعمل"[٥].

فرد عليه يوسف السباعي بخطاب – وهو الخطاب الآخر المنشور في جريدة الأهرام - قال فيه: "أستاذنا الكبير توفيق الحكيم .. لقد قدمت لمصر طوال عمرك – مدّ الله فيه وأبقاك بيننا في صحة وعافية – الشيء الكثير .. مما ساهم دائمًا في التعبئة الروحية لشعبنا وهو يتقدم في طريقه نحو مستقبل أفضل. وعندما تقف اليوم لتشهد عودة الروح إلى شعبنا الأصيل على يد القائد المؤمن محمد أنور السادات الذي حمل مسئولية أخطر مرحلة مر بها وطننا.

وتقدم بهدى من الله على أدق صراط ليقرر مصير هذا الوطن بقلب ملؤه الإيمان، ونفس ملؤها الشجاعة ليحطم بجيشنا الباسل المقتدر قيد المذلة بعد طول هوان، ويرفع رؤوسنا بعد طول إنحناءة، ويضع مصر في موضعها الحضاري الكريم الذي تبوأته دائمًا عبر العصور، وعلى مدى التاريخ، ويخطو بنا نحو مستقبل مشرق يحقق لنا الحرية والمساواة والأمن والرخاء. عندما تقف اليوم .. لتسأل ماذا يمكنك أن تقدم لهذا الوطن العزيز .. وتبحث عن موقع لك تؤدي فيه عملاً يدويًا بين العمال في مصنع، فإنه ليسعد كل مصري أن تكون بجواره، تشع من إيمانك بالوطن دفئًا وهداية. إن مصر التي تضم إلى صدرها اليوم بكل ما تملك من حنو وحب واعتزاز، وتقدير جنودها الذين اندفعوا بأرواحهم على أكفهم ليحرروا الأرض ويستردوا الكرامة ويحققوا الأمل في مستقبل باهر لتضم إلى صدرها بنفس الحب والإعزاز كتابها الذين أضاءوا بفكرهم طريق النضال والتقدم. لقد قلت عندما حاولت مصر أن تكرمك في يوبيلك الماسي، إن مجرد الشعور قد أغنى عن التكريم. ونحن نقول لك وأنت تحاول أن تنزل إلى مصنع بين العمال لتضيف بجهدك شيئًا يحقق العزة لمصر، فإن مصر تقول لك إن مجرد رغبتك تغني عن الجهد .. وتتمنى لك دائمًا طول العمر لترى مصر في أعز مكانة .. حرة أبية كريمة يشرق طريقها بالرخاء والعزة والسلام"[٦].

وهكذا وضع انتصار أكتوبر المسئولين عن المسرح أمام مواجهة صريحة مع أنفسهم، تختلف كثيرًا عن مواجهتهم لما حدث في ١٩٦٧، عندما تحولوا إلى فلاسفة، ووجهوا وجدان الجمهور – مسرحيًا – توجيهًا مخالفًا للحقيقة، عندما كتبوا مسرحيات وعرضوها، لإقناع الجمهور بأن هزيمة يونية ١٩٦٧ ما هي إلا حرب لم يحالفنا التوفيق فيها، أو على الأقل وصفوها بالنكسة[٧]!! فالفرق شاسع بين مسرح الهزيمة ومسرح الانتصار، لذلك فقررت لجنة القراءة المركزية بهيئة المسرح[٨] اختيار نصوص مسرحية تعبر عن حرب أكتوبر في وجدان الشعب تعبيرًا صادقًا وواقعيًا لما تمر به البلاد، ومن أهم النصوص المسرحية المختارة: (صقور وغربان أو ملحمة من سيناء، وهيلا هيلا يا مصر، وانتهوا أيها السادة، وانفجار، وحراس الحياة)[٩].

وهذه المسرحيات مسّت الوجدان الشعبي بلا شك، فقد قال عنها المخرج كمال حسين: "المسرح الآن يجب أن يكون مباشرًا بالدرجة الأولي بمعني فوتوغرافيا للبطولات الخارقة. ولا بد وأن يكون مثل الأغنية الحماسية والمقالة الساخنة والبيان العسكري"[١٠]. وقد أطلق عليها نبيل الألفي اسم "مسرحيات (الاستجابة السريعة)، وهي غالبًا تعتمد على الأحداث، والأخبار اليومية، والبيانات السياسية والعسكرية. أي مسرح الجريدة الحية، أو المسرح التسجيلي المبسط"[١١].

وفي هذه الفترة نشر السيد بدير – مدير هيئة المسرح – كلمة بخط يده في مجلة (الجديد) – مست وجدان القُراء - قال فيها: "كان يومًا مشهودًا .. يوم استشهد ولدي الطيار المقاتل. يوم وقفت أتلقى التهاني من أحبائي، يوم جفت الدموع وحلت ابتسامة الفخر على شفتي. واليوم نجني ثمار استشهاد كل الأبطال الذين وهبوا أرواحهم لترفع مصر رأسها من جديد .. [توقيع] السيد بدير"[١٢].

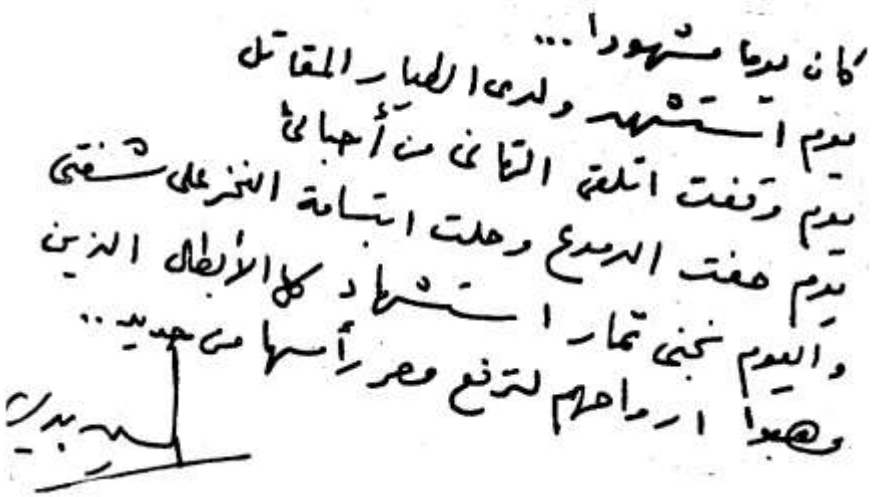

ومن خلال هذه الكلمة، نعلم أن السيد بدير مدير هيئة المسرح له ابن شهيد - في حرب ١٩٦٧، أو في حرب الاستنزاف - وهذه الشهادة كانت سبب الانتصار في حرب أكتوبر ١٩٧٣. ومن المحتمل أن الأب لا يعلم تفاصيل ما قام به الابن من بطولات أدت إلى استشهاده في ١٩٦٧، لذلك وجدناه يعالج هذا الألم بصورة عملية مؤثرة في وجدان الشعب، بحيث جعل المشاهد المسرحي، يقرأ ويشاهد نماذج من البطولات الحقيقية التي دارت في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وهذا الأمر نفذه السيد بدير، عندما جمع أحداث وتفاصيل بعض البطولات – التي دارت في معركة أكتوبر ١٩٧٣ – من أفواه أصحابها ومعاصريها من الضباط والجنود على الجبهة، وأعطاها لبعض الكُتّاب المسرحيين، طالبًا منهم إعادة صياغتها في صورة مسرحيات ذات فصل واحد، شريطة أن تحمل كل مسرحية اسم بطلها الحقيقي ورتبته، والموقع الذي دارت فيه الأحداث والبطولات. وهكذا قررت هيئة المسرح ترسيخ بطولات أكتوبر في وجدان الشعب من خلال عرض هذه المسرحيات في مسارح الهيئة وفي الأقاليم، وعرضها أيضًا في الأحياء الشعبية والمدارس من خلال مسارح متنقلة [١٣].

ومن حُسن الحظ حصولي على مخطوطة إحدى هذه المسرحيات؛ بوصفها دليلاً عمليًا على فكرة السيد بدير ومشروعه!! ولاحظت أعلى صفحتها الأولى عبارة (من مسرح المعركة)، مما يعني أن المشروع كان حقيقة واقعية ذات أثر كبير في وجدان الشعب، والمسرحية عنوانها (حدث في القنطرة شرق) – مسرحية في سبعة مشاهد – تأليف محمد سالم وزغلول الصيفي. ومن الواضح أن الأحداث كتبها محمد سالم، وأعاد صياغتها مسرحيًا زغلول الصيفي تطبيقًا لفكرة السيد بدير، والدليل على ذلك، ما كتبه محمد سالم على الصفحة الأولى من مخطوطة المسرحية، قائلاً:

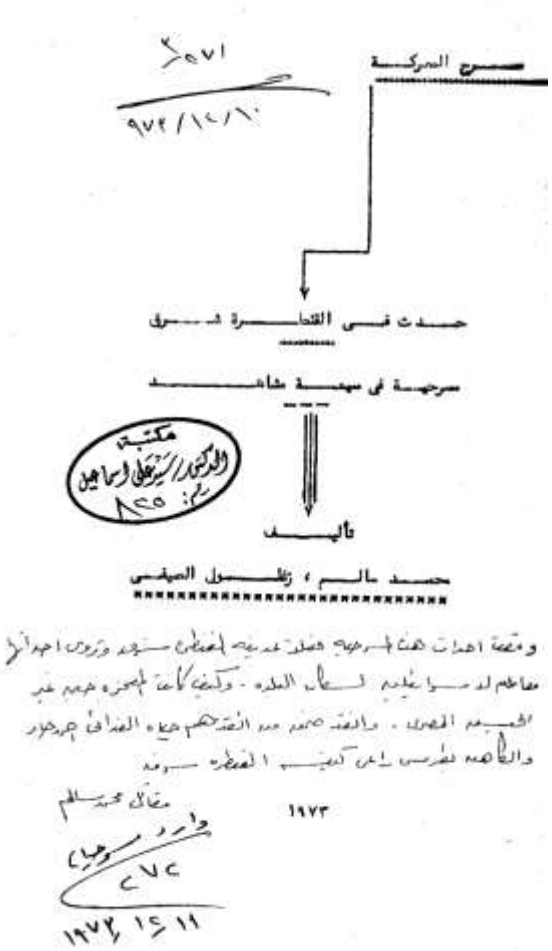

"وقعت أحداث هذه المسرحية فعلاً بمدينة القنطرة شرق، وتروي أحداثها معاملة الإسرائيليين لسكان البلدة، وكيف كانت المعجزة حين عبر الجيش المصري، وأنقذ ضمن من أنقذهم حياة الفدائي أحمد جابر، والكاهن بطرس راعي كنيسة القنطرة شرق". وجاء التوقيع هكذا: (مقاتل محمد سالم)[١٤].

وهكذا أنتجت فكرة السيد بدير مشروعًا كبيرًا مؤثرًا في وجدان الشعب، كما أنتج المشروع نصوصًا مسرحية ذات طابع تسجيلي خاص، يتناسب مع ظروف المعركة، وأظهرت شبابًا من كُتّاب المسرح، بدأوا في التألق مؤثرين بالإيجاب في الوجدان الشعبي، وبالسلب على أعلام مسرح الستينيات، الذين رفضوا هذا النوع من المسرحيات سريعة التأليف، مفضلين عليها مؤلفات الستينيات. وقد عبّر عن ذلك محمود دياب – بوصفه من كُتّاب مسرح الستينيات – قائلاً: "لا يمكن – [للكاتب المسرحي] - أن يقوم بكتابة المسرحية بين يوم وليلة، فالمعركة قامت فجأة ومن ثم فلا بد أن يعيش الكاتب المسرحي هذه الساعات وينفعل بها حتى يستطيع أن يبلورها في رؤية فنية وفكرية متكاملة ..... وأن الهيئة – [يقصد هيئة المسرح] - لو أرادت تقديم أعمال جادة ومناسبة فإن لديها رصيدًا من تلك المسرحيات وهو ما يسمي (بالريبرتوار)، أمثال مسرحيات: سليمان الحلبي، والفتي مهران، جيفارا. ويبدو أن مؤسسة المسرح قد تفاجأت بالمعركة، فقدمت أعمالاً ليست على مستوي الحدث ولا علي المستوي الفني أيضًا"[١٥].

وعلى الرغم من ذلك، فإن مشروع السيد بدير نجح، وسانده مجلس الوزراء – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – عندما قرر المجلس في جلسته بتاريخ ١٩٧٣/١١/٢١ - فيما يخص قطاع الإعلام والثقافة - "المشاركة بجميع الإمكانيات المتاحة في تقديم الخدمات الإعلامية والثقافية سواء بتقديم العروض الفنية في الجبهة أو في أماكن النقاهة أو في المستشفيات"[١٦]. وهذا القرار يعني إيمان الحكومة بضرورة التأثير مسرحيًا وفنيًا في وجدان الشعب.

ويجب علينا أن نلقي الضوء على نماذج من أصحاب مسرحيات هذا المشروع – أو هذه الفترة – لبيان أهميتها وأثرها في وجدان الشعب المصري خلال الثلاثة أشهر الأولى من بداية انتصارات أكتوبر؛ بوصفها أهم فترة مسّ فيها المسرح وجدان الشعب. والنماذج المختارة، يجب أن تحقق أكبر نسبة من الكم والكيف، بحيث يكون النموذج المختار كتب أكثر من مسرحيتين على الأقل خلال الثلاثة أشهر الأولى – من أكتوبر إلى ديسمبر ١٩٧٣ - وأن تكون مسرحياته ذات أثر في الوجدان الشعبي، وأن تكون تطبيقًا لفكرة السيد بدير ومشروعة، أو تنفيذًا لقرار مجلس الوزراء.

النموذج الأول – وفقًا لهذه المعايير – يتحقق في اسم الكاتب والمخرج المسرحي السيد حافظ، الذي نجح في لم شمل أكثر من ثلاثين شابًا هاويًا – وبالجهود الذاتية - مكونًا منهم فرقة مسرح الطليعة بالإسكندرية، التي قدمت أكبر مجموعة من عروض مسرحيات انتصارات أكتوبر على مسرح قصر ثقافة الشاطبي، وقصر ثقافة الأنفوشي، وقصر ثقافة الحرية. هذا بالإضافة إلى إعادة عرض العروض داخل المصانع والشركات، ومن أهمها: العرض الشعري (وطني يا وطني)، الذي أعدّه السيد حافظ عن أشعار محمود درويش وآخرين، وقام بإخراجه. وعرض (عمار يا مصر) من تأليف السيد حافظ، الذي تم عرضه في سبع عشرة محافظة في وقت واحد، ناهيك عن العرض المميز الذي عُرض في ساحة شباب دمنهور من إخراج علي عبد العزيز. وأخيرًا نجد السيد حافظ يعرض رائعته (والله زمان يا مصر) بلوحتيها الفنيتين (رجل ونبي وخوذة)، و(سينا مانسيناش) من إخراج محمد غنيم على قصر ثقافة الحرية بالإسكندرية، والتي تدور أحداثها في مدينة القنطرة شرق حيث دارت الحرب الشعبية، وتعاون الشعب مع الجيش في التخلص من قوات العدو الإسرائيلية. وقد وصل عدد عروض مسرحيات السيد حافظ – المتعلقة بالمعركة في تلك الفترة – إلى أكثر من مائة ليلة عرض، تأكيدًا على ارتباط عروضه بوجدان الشعب المصري[١٧].

والنموذج الثاني – وفقًا للمعايير السابقة - يتحقق في اسم الكاتب المسرحي والشاعر عبد العزيز عبد الظاهر، الذي كتب ثلاث مسرحيات خلال الثلاثة أشهر، تُعدّ نموذجًا لأثر مسرحيات أكتوبر في وجدان الشعب المصري، وتطبيقًا عمليًا لمشروع السيد بدير. فقد روى الشاعر بأنه كان يقوم بقراءة وتوصيل خطابات الجنود إلى أهاليهم، بعد أن تأتيه - إلى مقر الاتحاد الاشتراكي العربي - من الأستاذ حسن غنيمة المراسل الحربي لجريدة الأهرام. وهذه الخطابات، كانت عبارة عن كتابات قصيرة مكتوبة على المساحة البيضاء من أحرف أوراق الصحف، أو خلف كراتين علب السجائر، أو على أوراق (شكاير الأسمنت)!! وكانت هذه القصاصات تحمل قصصًا وبطولات لأصحابها؛ وصفها الشاعر بأنها أهم وثائق تتعلق بحرب أكتوبر، وذكر مثالاً على هذه الخطابات، قائلاً: "أذكر أن أحد هذه الخطابات كان من جندي مقاتل لأهله بعزبة الصعايدة في إمبابة وجلست معهم، وقدموا لي كوبًا من الشاي، وأخذوا الخطاب يقرأونه، ثم انطلق بسرعة شاب صغير بعد قراءة الخطاب، وما هي إلا لحظات وانطلقت الزغاريد من المنزل المقابل. فقد احتوت الرسالة خبر استشهاد أحد المقاتلين، ولم يكن سوى ابن من أطلقوا الزغاريد التي انتشرت في الحارة كلها، كما لو كان عرسًا حقيقيًا"[١٨].

هذه الخطابات، التي تحمل القصص الحقيقية لبطولات حرب أكتوبر، تأثر بها الشاعر، كما تأثر بالبيانات العسكرية التي ألهبت حماس الشعب، فكتب مسرحيته الأولى، التي قال عن ظروف تأليفها: "لمعت في ذهني فكرة البيانات الشعبية، وقلت في نفسي: لماذا لا أكتب بيانات من الشعب إلى العالم، تماثل تلك التي تذيعها القوات المسلحة! مثل، بيان من زوجة المقاتل إلى زوجها، وبيان من الفلاح إلى إخوته المقاتلين، وبيان من العامل، ومن الموظف، ومن كل فئات الجبهة الداخلية"[١٩].

ومن خلال هذه البيانات، كتب عبد العزيز عبد الظاهر مسرحيته الأولى (هنا القاهرة)، التي عُرضت على مسرح السامر يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٣ من إخراج عبد الرحمن الشافعي، فكانت تعبيرًا صادقًا عن وجدان الشعب، وقد تم تمثيلها أيضًا قصر الثقافة بأسوان، وعرضتها فرقة الفلاحين بالمنصورة[٢٠].

وبعد شهر تقريبًا، كتب الأستاذ عبد العزيز أشعار مسرحيته الثانية (السويس حبيبتي)، التي عرضتها فرقة ناشئة - كل أفرادها من السويس - لتحكي قصص البطولات بأسماء أصحابها، وبأماكنها. ويكفي أن نقتطع هذا الجزء مما كتبته الناقدة سناء فتح الله عن العرض – لنلمس أثره في وجدان الجمهور – حيث قالت الناقدة: "عجينة خاصة، لها مذاق خاص، تختلط فيه الكلمة بطلقات المدافع بالصرخات بالإيقاع بالحركة برائحة البارود .. كل ذلك علي نغمات الموسيقي الصارخة الزاعقة شديدة الحماس والتكوين، مما جعل معظم المسرحية تعيش فترات التصفيق الحاد المختلط ببكاء المتفرجين .... أعجبني بصفة خاصة المشهد الخاص (بالحنة السويسي)، وهو من الفولكلور الخاص بمدينة السويس؛ حيث يحمل أحدهم صينية كبيرة مليئة بالشموع والورد والحنة، ثم تدور حولها حلقات الرقص بإيقاع خاص، ونغم خاص لترديد أغنية بهذه المناسبة. وعلي يسار المسرح يقف المقاتلون علي مدافعهم بكامل استعداداتهم، وفي أعينهم ذلك اللمعان الرهيب المضيء الذي يحكي قصة المدينة ..... تحكي المسرحية بين الفقرات قصصًا كلها من الواقع القريب وبلا أي رتوش، بنفس الأسماء بنفس التواريخ بنفس المواقع"[٢١].

وفي أواخر ديسمبر ١٩٧٣، ألف عبد العزيز عبد الظاهر مسرحيته الثالثة (الحمام على برج أكتوبر)، التي عُرضت في الجامعة الأمريكية بالقاهرة[٢٢]، وعن ظروف كتابتها، قال: "أثناء عرض (السويس حبيبتي) بالإسكندرية، وكنت أيضًا مشاركًا بالأداء فيها، شرعت في كتابة مسرحية (الحمام على برج أكتوبر). فقد وجدت أنه من المناسب، وقد توقفت المدافع عن الإطلاق، أن أكتب مسرحًا بالشكل المتعارف عليه، أي بشكل درامي، لا مجرد أشعار وأغان، بل شخوص تتحرك وتتصارع وتتحاور من خلال منظر مسرحي، ولا أمانع أن يكون هناك أغان تعلق أو تعمق أو تشارك في صنع الدراما. وكان السؤال الذي طرحته على نفسي: هل كانت حرب أكتوبر من جانبنا رغبة في إسالة الدماء والقتل، أم هي حرب من أجل الوصول إلى سلام عادل، يضمن لنا عودة الأرض ويضمن للفلسطينيين وطنًا يعيشون عليه كبقية الشعوب. وبالطبع كانت حرب أكتوبر هي حرب من أجل السلام، أي أن حرب أكتوبر، وإن كانت برجًا عاليًا في تاريخ النضال المصري والعربي، إلا أن هذا البرج من أجل الحمام الذي هو رمز للسلام"[٢٣].

الهوامش والإحالات:

(١) – جلال العشري – وماذا يقدم السؤال المطروح بعد السادس من أكتوبر - مجلة (الإذاعة) - ١٩٧٣/١٢/١٥

(٢) – راجع: جريدة الأهرام – ١٩٧٣/١٠/١٠، تحية عبد الوهاب - يوسف السباعي .. المسرح مجاناً – مجلة (روز اليوسف) – ١٩٧٣/١٠/١٥، جريدة (الجمهورية) ١٩٧٣/١١/٢١

(٣) – ينظر: إعلانات جريدة (الأخبار) – ١٩٧٣/١٠/١٢، ١٩٧٣/١٠/١٤

(٤) – جريدة الأهرام – ١٩٧٣/١٠/١٥

(٥) – جريدة الأهرام – ١٩٧٣/١٠/١٦

(٦) – السابق

(٧) – ينظر: بحثي المعنون بـ(المسرح المصري وهزيمة يونية ١٩٦٧)، الذي قدمته في ندوة (حرب يونيو ١٩٦٧ وبداية حرب الاستنزاف : خمسون عاماً على حرب يونيو)، التي أقامها مركز تاريخ مصر المعاصر يوم ٢٠١٧/٩/٢٨ بدار الكتب والوثائق القومية.

(٨) – وكانت في هذا الوقت، تتكون من: السيد بدير، والدكتور رشاد رشدي، وأنيس منصور، ونبيل الألفي، وأنور أحمد، وسميحة أيوب، وسنية ماهر، وأحمد حلمي، ومحمد محمود شعبان، وأحمد عبد الحليم، وعبد الرحيم الزرقاني، وأحمد زكي.

(٩) – ينظر: جريدة (الجمهورية) ١٩٧٣/١١/٢، وأحمد عبد الحميد - الفن : عفواً . . . هيئة المسرح – جريدة (الجمهورية) ١٩٧٣/١١/١١.

(١٠) – زينب منتصر - هل يتوقف المسرح ؟ - مجلة (روز اليوسف) – ١٩٧٣/١١/١١

(١١) – مجلة (روز اليوسف) – ١٩٧٣/١١/١٧

(١٢) – حمدي الجابري - المعركة ورجال المسرح – مجلة (الجديد) – ١٩٧٣/١١/١

(١٣) – راجع: جريدة (الأخبار) - ١٩٧٣/١١/١٧

(١٤) – أصل مخطوطة هذه المسرحية، مع أكثر من ثلاثين نصاً مسرحياً - كُتبوا خلال العام الأول من نصر أكتوبر - أهديتها عام ٢٠١٥ إلى وزارة الثقافة لنشرها في موسوعة من خمسة أجزاء بعنوان (موسوعة مسرحيات انتصارات أكتوبر ١٩٧٣)، وللأسف لم يتم المشروع – حتى الآن - ومازالت النصوص محفوظة في المركز القومي للمسرح والموسيقى التابع لوزارة الثقافة. لذلك وجهت أحد الباحثين النابهين لدراسة هذه النصوص تحت إشرافي في مرحلة الدكتوراه، وهو الباحث محمد حسن نصار، وعنوان رسالته (الرؤية والتشكيل في نصوص المسرح التسجيلي في مصر : مسرحيات حرب أكتوبر نموذجاً)، وتم تسجيل الرسالة بتاريخ ٢٠١٦/٥/١٦ بقسم اللغة العربية – كلية الآداب جامعة حلوان.

(١٥) – زينب منتصر - لا فرق بين القطاع العام والخاص في المعركة – مجلة (روز اليوسف) – ١٩٧٣/١١/٢٦

(١٦) – عبد الواحد النبوي – مصر في قلب المعركة من وثائق حرب أكتوبر في الأرشيف المصري – سلسلة دراسات وثائقية – عدد ١٠ – دار الكتب والوثائق القومية – ٢٠١٣ – ص(٣٨٩)

(١٧) – محمد صدقي - وطني .. عشت يا وطني – جريدة (الجمهورية) – ١٩٧٣/١٢/١، ١٩٧٤/١/٥ـ وحوار تليفوني بيني وبين السيد حافظ، تم يوم الأربعاء ٢٠١٧/١٠/٢٥ الساعة السادسة مساء.

(١٨) – هذه الذكريات وغيرها، ذكرها الأستاذ عبد العزيز عبد الظاهر تحت عنوان (ذكريات مسرح المعركة .. أكتوبر ١٩٧٣)، التي نشرتها الأستاذة صفاء البيلي من صفحة (٢٨٤) إلى صفحة (٢٩٠) في دراستها المعنونة بـ(ملحمة نضال الجيش والشعب)، المرفقة بنص مسرحية (الحمام على برج أكتوبر)، المنشورة في كتاب – في ٦٦٦ صفحة – تابع لوزارة الثقافة. وهو كتاب وهمي ليس له وجود فعلي وليس له رقم إيداع أو أي توثيق يُمكن للباحث الاعتماد عليه أو الرجوع إليه!! وهذا الكتاب الوهمي أصدره المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية – التابع لوزارة الثقافة – وقدّم له وزير الثقافة حلمي النمنم بمقدمة منشورة في بداية

هذا الكتاب الوهمي، الذي قامت وزارة الثقافة بتصوير صفحاته، وتجميعها - بواسطة ماكينة تصوير للمستندات داخل سوبر ماركت - في ثلاثين نسخة تمّ عرضها - من أجل التصوير (فقط) - داخل مسرح الهناجر بالأوبرا في احتفالات الوزارة بانتصارات أكتوبر عام ٢٠١٥، دون أن يحصل أي فرد على نسخة واحدة من هذه النسخ الثلاثين، التي تم التخلص منها بعد الاحتفال مباشرة من أجل إخفاء جريمتي التزوير وإهدار المال العام. ولحسن الحظ استطعت الحصول على النسخة الوحيدة المفقودة من الثلاثين نسخة قبل التخلص منها، وهذا وصفها: الغلاف الأمامي به شعار واسم المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ثم عنوان الكتاب هكذا (سلسلة مسرحيات حرب أكتوبر) ٢٠١٥. وعلى الغلاف الخلفي يوجد شعار واسم المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ثم عنوان (هذه السلسة) وأسفل العنوان جاء الآتي: "حرب أكتوبر ليست مجرد انتصار، أو عبور، أو استرجاع لكرامة، ووطن. بل هي روح وهذه الروح سرت في شعب بأكمله، فأبدع نصراً، عملاً، أدباً، فناً، ذوقاً، وأخلاقاً. وهذه المسرحيات التي بين أيدينا جزء من نتاج هذا الإبداع. ونحن في المركز القومي للمسرح نأمل بنشرها استعادة هذه الروح لملحمة أكتوبر العظيمة". وجاء في الصفحة الأولى – داخل الكتاب – الآتي: "(أكتوبر ملحمة النصر) مسرحيات مختارة: (حدث في أكتوبر) تأليف إسماعيل العادلي، (حبيبتي يا مصر) تأليف سعد الدين وهبة، (أغنية للحياة) تأليف إبراهيم محمد علي، (الحمام على برج أكتوبر) تأليف عبد العزيز عبد الظاهر، (العبور) تأليف جلال العشري، (فرحة القنطرة شرق) تأليف محمد الهادي السيد إسماعيل، (هيلا هيلا يا مصر) تأليف السيد طليب".

([١٩]) – السابق

([٢٠]) – اتصال تليفوني مع المؤلف عبد العزيز عبد الظاهر يوم الخميس الموافق ٢٠١٧/١٠/٢٦ الساعة العاشرة صباحاً

([٢١]) – سناء فتح الله – السويس حبيبتي - جريدة (الأخبار) - ١٩٧٣/١٢/١٧

([٢٢]) – ينظر: جريدة (المساء) ١٩٧٣/١٢/٢٢

([٢٣]) – صفاء البيلي - السابق